الجامعة المصرية
والجامعة الأزهرية

obeikandl.com

obeikandl.com

الجامعة المصرية

تعددت في أوائل القرن الحالي كتابات دعاة الإصلاح في ضرورة إنشاء جامعة مصرية على غرار الجامعات الأوربيـة ورحبت الصحف بآرائهم واقتراحاتهم فأوسعت لها المجال

وفي سنة ١٩٠٦ اشتدت الدعوة إلى وجوب إخراج المشروع من حيز الفكر إلى حيز الوجود وأعرب بعض من الأغنياء عن استعدادهم للتبرع له بالمال إلى أن كان شهر أكتوبر من تلك السنة فاستقر قرار جماعة من ذوي الرأي والحمية على عقد اجتماع يخطون فيه أول خطوة عملية في سبيل تحقيق الفكرة التي تحمسوا لها

وكان المغفور له سـعد زغلول باشا في طليعتهم فقال لهم إنه يسره أن يعقد الاجتماع في داره

وفي تلك الدار التي فازت فيما بعد بلقب « بيت الأمة » عقد فعلاً ذلك الاجتماع التاريخي الأول وعلى أثر ارفضاضه أذيع البيان التالي :

« في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٢٤ شعبان سنة ١٣٢٤ الموافق ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ اجتمع في منزل عزتلو سعد بك زغلول بجهة الإنشاء الموقعون على هذا بصفتهم من المكتتبين الأولين لإنشاء الجامعة المصرية وقرروا :

أولاً : انتخاب لجنة تحضيرية مؤلفة من حضرات سـعد بك زغلول وكيلاً للرئيس العام وقاسم بك أمين سكرتيراً للجنة وحسن بك سعيد وكيل البنك

الألماني الشرقي أميناً للصندوق ومحمد بك عثمان أباظة ومحمد بك راسم وحسن بك جمجوم وحسين باشا السيوفي وأخنوخ افندى فانوس وزكريا افندي نامق ومحمود الشيشيني ومصطفى بك كامل الغمراوي أعضاء

ثانياً : تأجيل انتخاب الرئيس العام إلى الجلسة القادمة

ثالثاً : نشر دعوة في جميع الصحف المحلية عربية وافرنجية

رابعاً : الاجتماع مرة أخرى بدعوة خصوصية لانتخاب الرئيس وأعضاء اللجنة النهائية

خامساً : تسمية هذه الجامعة بالجامعة المصرية

وبلغ مجموع الاكتتابات التي اكتتب بها المجتمعون في ذلك الاجتماع ٤٤٨٥ جنيهاً »

ونشرت الصحف مع هذا البيان الدعوة التي وجهتها اللجنة التحضيرية إلى الأمة واستهلتها بوصف الغرض من إنشاء جامعة والخطة التي ستتبع في إنشائها وكان مما قالته في هذا الصدد « وليس لهذه الجامعة صبغة سياسية ولا علاقة لها برجال السياسة ولا المشتغلين بها فلا يدخل في إدارتها ولا في دروسها ما يمس بها على أي وجه كان »

وقبل أن تعقد اللجنة اجتماعها الثاني اختير سعد باشا ناظراً (وزيراً) للمعارف فلما اجتمعت للمرة الثانية في دار حسن جمجوم بك لانتخاب الرئيس العام كاشفها سعد باشا رحمه الله باضطراره إلى اعتزال رئاسة اللجنة قائلا إنه يأسف على ذلك أشد الأسف ولكن « مما هوّن على نفسه أن عمله الجديد هو خدمة المعارف في مصر وهو المقصد العام لحضرات الأعضاء . » فانتخبوا المغفور له قاسم أمين بك ليحل محله في الرئاسة الوقتية فوقف رحمه الله وألقى بياناً قال فيه « تنفيذاً لسرعة جمع الاكتتابات قد جرت مخابرات بيننا وبين أحد أمراء الأسرة العلوية ممن

يظن فيهم الميل إلى المشروعات النافعة واستمرت تلك المخابرات مدة ولهذا أرى أن يؤجل انتخاب الرئيس إلى جلسة أخرى »

وأثبتت الأيام إصالة رأي قاسم أمين فإن سنة ١٩٠٧ كلها انقضت من دون أن يتقدم المشروع تقدماً يذكر ، ولم تلبث حركة الاكتتابات أن فترت فساور المهتمين بالمشروع قلق عليه ورأوا أن لا مندوحة لهم عن تجديد السعي عند الأمير أحمد فؤاد فاستمهلهم لانهماكه بتعزيز بعض الجمعيات العـــامة فألحوا مؤكدين لسموه أن فكرة الجامعة المصرية لا تنجح إلا إذا تعهدها بعلمه الواسع وخبرته العظيمة ونفوذه الشخصي وأخيراً قبل الرئاسة وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٠٨ — قبلها وهو مقدر للصعاب الكثيرة التي تحيط بها من كل جانب ولكنه كان بناء بفطرته فطاب له الجهاد في سبيل بناء الجيل الجديد

وكان من نتيجة هذا الاختيار أن تجددت الثقة بالمشروع والتهبت النفوس حماسة له فتدفقت عليه الاكتتابات واستطاع سموه أن يقنع أخته سمو الأميرة فاطمة اسماعيل بفائدة العمل الذي أخذ على عاتقه مهمة النهوض به فوهبت الجامعة هبتها العظيمة المعروفة

غير أن كثيرين لم يكتموا ما أخذهم من العجب لقبول سموه رئاسة مشروع كانوا يرون حبوطه محققاً . أولا لأن نجاحه يقتضي جهوداً عظيمة لم يألفوها من قبل . وثانياً لأنهم كانوا يعلمون أن هناك من يحارب المشروع ويقيم الصعاب في سبيله فقالوا « إن الأمير أحمد فؤاد يتعب نفسه بلا طائل ويهتم بعمل مؤسس على خيال »

وأشار سموه إلى تلك الصعاب في رسالة وجهها إلى الشعب المصري في أواخر سنة ١٩١١ أي بعد إنشاء الجامعة بنحو أربع سنوات فقال « وبالرغم مما صادف مشروعاتنا من التأويل الباطل والتعنت الذي أريد به وضع حجر العثرة في نهضة

جامعتنا وكان حظه الفشل وفضلا عن الصعوبات المادية والأدبية التي صادفناها في طريقنا وكان منشؤها إما الجهل أو عداء فئة قليلة لا يعتد بها لم يلبث عملنا الجليل المحبوب أن ثبتت دعائمه وأخذ يستكمل حظه يوماً فيوماً »

وكأنما أراد سموه أن يجد في بناء جيل متعلم جديد حافزاً له على المضي في جهاده فقال بعد ذلك في رسالته « ولا شك في أن نفع شبابنا الأعزاء هو فوق كل المقاومات والانتقادات المقصودة وإن رغبتنا الشديدة في تحقيق هذا النفع وإخلاصنا في إحياء العلم يكسبنا القوة للثبات والدأب في هذا العمل وقد أعرت قلبي في سبيل هذه الغاية لكي يتسنى لأبناء وطني أن يأخذوا حظهم من العلم والعرفان وينصرفوا إلى إحياء نضارة لغتهم وآدابهم وفنونهم العظيمة ويسهل عليهم تحقيق هذه الأمنية الجليلة حينما يستقون عزيمتهم وعلمهم من مجد أجدادهم وعلومهم وقد كادت تكون في عالم النسيان حيناً من الدهر ولا وسيلة لهم إلى الوقوف على حسبهم وتاريخهم وفهم حقوقهم وقيامهم بواجبهم إلا بالرجوع إلى هذه المصادر الغزيرة وبذلك يعيدون كنوز العلوم العربية القديمة التي تأخذها الآن عن الغرب »

هذا ما قاله الأمير أحمد فؤاد في سنة ١٩١١ في رسالة وجهها «إلى أبناء وطنه» كما جاء في صدرها ومن ينعم النظر في أقواله ير أنه لم يكتف بالرد على خصوم الجامعة — يومئذ — بقوله « إن منفعة شبابنا تسمو على جميع المقاومات والانتقادات المغرضة » بل بسط بعبارات وجيزة أغراض الجامعة أو ما نسميه اليوم رسالة الجامعة وانظر كيف كان تفاؤله عظيما يومئذ حين قال « وكما أن ضوء النهار بعد الليلة الحالكة الظلام يتجدد بنور الفجر كذلك روح النهضة العلمية في مصر بعد أن كانت مستغرقة في سبات عميق حيناً من الدهر سيكون لها شأن

عظيم في إحياء ذكرى ماضينـــا الذي كان ولا يزال مقروناً على الدوام بالمجد والعظمة »

بل انظر إلى ما قاله بعد ذلك في رسالته تجده يعبر عما يجيش به صدره بما يصور روحه البنائية أصدق تصوير . قال « ولقد تفردنا زمناً طويلاً بمدنية زاهرة ومجد عظيم ولا يتعلم الشعب ويقف على سر مستقبله ليصل إلى النهاية العظمى من الحضارة والمدنية إلا حينما يغرس فيه شعور إجلاله لأسلافه وما كان عليه أبطالهم . فدرس أصول لغتنا وسعتها والتضلع من الآداب والتاريخ والفلسفة العربية ولاسيما المقابلة بين المدنية العربية والمدنيات الراقية في عصرنا هذا يفتح لشبابنا الطريق الذي نسير بهم فيه ليتسنى للمدارس الثانوية المصرية أن تجد فيهم معلمين أكفاء للغد »

فهل يستطيع عميد في الجامعة أن يخاطب شباننا اليوم بخير من هذا الـكلام وقد قاله الملك فؤاد من ثلاثين سنة . . . . يوم كان كثيرون يبتسمون ويقولون « جامعة مصرية ؟ . . . . يا لها من فكرة غريبة » فإذا الأمير أحمد فؤاد يوضح لهم مهمة الجامعة بعبارات موجزة حققتها الأيام وأثبتت بعد نظر قائلها فأصبحت جديرة بأن تنقش اليوم على جدران كليات الجامعة وهل هناك أجمل من قول عاهل عظيم « لقد تفردنا زمناً طويلا بمدنية زاهرة ومجد عظيم ولا يتعلم الشعب ويقف على سر مستقبله ليصل إلى النهاية العظمى من الحضارة والمدنية إلا حينما يغرس فيه شعور إجلاله لأسلافه وما كان عليه أبطالهم »

ومع ذلك كان الأمير أحمد فؤاد يعلم أنه سيصادف صعاباً أخرى وأن مهمته في الجامعة لم تنته في سنة ١٩١١ ولـكنه كان مصمماً على المضي في جهاده إلى النهاية لأنه كان بناء بطبيعته فقال :

« و إنني على يقين من أننا سنصادف صعوبات أخرى في طريقنا وأننا سنضطر للجهاد مراراً لإزالة عقبات أخرى و إبادة الأوهام وقهر العدوان ولكن لا يفوتنا أن عملا جديداً مثل هذا لا يمكن أن يصل إلى درجة الكمال من غير أن يلاقي في طريقه مثل هذه المقاومات ممن لا يروق في نظرهم كل عمل جديد فيقابلونه بالسخرية لضعف عزيمتهم »

وتتجلى روحه الوثابة العظيمة وقوة إيمانه بالمستقبل في قوله بعد ذلك « لو كنت من الذين يميلون إلى الاستعارات والتشبيهات لقلت إنه من السهل تشبيه الجامعة بتشييد تلك الأبنية الشاهقة والمعابد الشامخة التي يتبادر إلى الذهن أنها لا تتم أبداً لما تستدعيه من المعدات الهائلة المختلفة الأنواع غير أني أوثر العمل على زخارف الكلام المعدوم الفائدة وعلى التسليم بأن عملي مؤسس على خيال فإني آمل أن يصبح بناؤنا يوماً بعد تمامه مركزاً لإعادة مجد العلوم والفنون في هذه البلاد وأن تكون خيالات اليوم حقائق الغد »

* * *

وفي شهر يوليو سنة ١٩٠٨ سافرت إلى أوربا أول بعثة للجامعة المصرية ثم عقبتها بعثات أخرى

أما المواد التي شرع في تدريسها في الجامعة فكانت : الحضارة الإسلامية والحضارة الشرقية القديمة والعلوم التاريخية والجغرافية وتاريخ آداب اللغة الفرنسية وتاريخ آداب اللغة الإنجليزية ثم زيدت المواد تدريجياً فشملت آداب اللغة العربية وعلم الصحة والرياضيات العالية وعلم الفلك عند العرب والاقتصاد السياسي ومحاضرات في تاريخ المرأة في العصور المختلفة

وفي ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ افتتح سمو الخديو عباس الثاني الجامعة المصرية رسمياً وكان سمو الأمير أحمد فؤاد قد زار بلدان أوربا في صيف تلك السنة (١٩٠٨)

للاطلاع على نظمها الجامعية ثم كرر هذه الزيارة في السنة التالية فوفق إلى استعارة نفر من كبار الأساتذة الجامعيين الأوربيين للتدريس في الجامعة المصرية و إلى إقناع الحكومات والجماعات الأوربية بإهداء ألوف من الكتب إلى مكتبة الجامعة فكانت نواة حسنة للمكتبة العظيمة الحالية

* * *

وكان دولة اسماعيل صدقي باشا من أعضاء مجلس إدارة الجامعة في عهد الأمير أحمد فؤاد فحدثني عن عمل سموه في ذلك العهد . قال : إن مواهبه تجلت في إنشاء الجامعة بأجلى مظاهرها ولا سيما موهبة الجد والنشاط مع الرغبة الصادقة في تحقيق أغراض إيجابية فأمكنه أن ينشىء الجامعة من لا شيء وما زلت أذكر أنه كان يهب لها كل وقته ولا أغالي إذا قلت إنه كان مواظباً على عمله فيها أكثر من مواظبة أعضاء مجلس الإدارة وطالما سمعته يقول إنه يريد أن يبذل كل ما في استطاعته بذله ليرفع شأن الثقافة العربية ليهيىء لشباب مصر وسائل الاستزادة منها وكثيراً ما كان يخيل إليّ أن حرمانه من هذه الثقافة في صباه كان يذكي فيه غيرة خاصة عليها وكان دائماً يردد قوله « إن مدنيتنا يجب أن تكون مدنية شرقية عربية »

واستطرد صدقي باشا من ذلك إلى القول « فإذا أكدت لكم أن الأمير أحمد فؤاد هو الذي أنشأ الفكرة الجامعية عندنا إنشاء عملياً فلا أكون إلا معترفاً بالحق ومقرراً للواقع فقد كان يعتقد أن مصر لا تتقدم إلا بتعليم عال جامعي »

* * *

وكنا نقلب مرة محاضر الجامعة القديمة فقرأنا فيها ما يلي : إنه في يوم الثلاثاء ٢٨ أبريل سنة ١٩٠٨ اجتمعت اللجنة الفنية للجامعة المصرية برئاسة دولة الأمير أحمد فؤاد باشا وبحثت موضوع لغة التعليم في الجامعة ثم « قررت بالإجماع أن

تكون لغة التعليم الرسمية في الجامعة هي اللغة العربية دون سواها لتكون واسطة لنشر المعارف وترقية العلوم بين الناطقين بالضاد ولكي ترتقي اللغة العربية نفسها بهذه الوسيلة ، ولكن بما أن العلوم العالية والمعارف العصرية مدونة باللغات الأفرنكية ولا تتوفر الآن المعدات اللازمة لنقلها إلى اللغة العربية فضلا عن عدم وجود الأساتذة المتقطعين لها الآن فلذلك ستدعو الضرورة في بداية الأمر — وإلى أجل مسمى فقط — لإلقاء بعض الدروس بإحدى اللغتين الأجنبيتين الشائعتين في مصر وهما الفرنسوية والإنكليزية ريثما يعود الطلبة المصريون الذين سترسلهم الجامعة على نفقتها إلى معاهد العلم في أوربا فيتولون التدريس باللغة العربية »

فيتبين مما تقدم ما كان للغة العربية من مقام رفيع في نفس الملك فؤاد وما كان جلالته يريده لها من نحو خمس وثلاثين سنة بوصفها لغة البلاد الوطنية وفي وضوح عبارات المحضر الذي نقلنا عنه قرار اللجنة ما يغني عن كل إيضاح ومع ذلك فعبارة « هي اللغة العربية دون سواها » وعبارة «في بداية الأمر وإلى أجل مسمى فقط » تستحقان أن يضع الباحث تحتهما خطاً لما تنطويان عليه من مغزى جليل

ثم إن من ينعم النظر في العبارة الأولى من عبارات القرار يجد فيها أن الملك فؤاداً كان يرى من ذلك الحين أن رسالة الجامعة المصرية لن تقف عند حدود مصر بل ستتجاوزها حتماً إلى جمع البلدان العربية يوماً ما بدليل عبارة القرار القائلة « لتكون — أي اللغة العربية — واسطة لنشر المعارف وترقية العلوم بين الناطقين بالضاد »

* * *

وعلى ذكر اهتمام الملك فؤاد باللغة العربية وضرورة إحلالها المحل اللائق بها قصّ علينا سعادة أحمد لطفي السيد باشا أنه في سنة ١٩١١ — وكان سعادته

يومئذ مديراً لجريدة « الجريدة » — دعاه الأمير أحمد فؤاد إلى مقابلته في سراي البستان وبحث معه برنامج كلية الآداب في الجامعة المصرية ولا سيما كيفية تدريس العلوم التي يمكن تدريسها باللغة العربية

قال لطفي باشا « واستغرق بحث هذا الموضوع ساعتين كاملتين ظهر لي في أثنائهما مقدار إجلال الملك فؤاد العظيم للغة العربية »

* * *

ومن المعلوم للمحيطين بتاريخ الجامعة القديمة — أي قبل أن ننتقل إلى الحكومة — أن أحمد لطفي السيد باشا كان وكيلا لها مع المغفور له عبد الخالق ثروت باشا في عهد رئاسة المغفور له حسين رشدي باشا لمجلس إدارتها فسألناه عن الظروف التي أفضت إلى انتقالها إلى وزارة المعارف فقال : « في نحو سنة ١٩١٧ على ما أذكر قدم أحدهم إلى وزارة المعارف تقريراً بتحويل الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة مصرية أميرية ثم أغفل هذا التقرير

« وفي سنة ١٩٢٢ وكنت إذ ذاك وكيلا للجامعة رأيت أن الجامعة ستهوي فوضعت مشروعاً بتعديل نظام كلية الآداب والتمست مقابلة الملك فؤاد وبسطت له الموقف بصراحة تامة مستأذناً في أن أقدم مشروعي إلى وزارة المعارف وكان أساس هذا المشروع أن تعد وزارة المعارف امتحانات الجامعة وفي مقابل ذلك يكون لخريجي الجامعة حق الالتحاق بوظائف الحكومة . فأصغى إليَّ جلالته باهتمام عظيم ورحب بالفكرة ووعدني بأن يتكلم مع الحكومة في شأنها ثم تبسط معي في الحديث عن حالة الجامعة المادية بالمأثور عنه من عطف عليها وكان مما قاله لي « إذا استطعت أن تحث الأعيان والأغنياء على تقديم هبات للجامعة لتنهض بمهمتها فإني على استعداد تام لمكافأتهم أدبياً »

ومضى لطفي باشا في حديثه فسرد ما حدث عقب تلك المقابلة . قال : « وقابلت

بعد ذلك وزير المعارف — وكان المغفور له زكي أبو السعود باشا — فقال لي إن الملك فؤاداً شديد الاهتمام بهذا الموضوع وقد خاطبني فيه ونحن عندنا مشروع لجامعة حكومية فلماذا لا نجعل كلية الآداب جزءاً منها فقلت لا مانع بتاتاً مادام الغرض واحداً . وعلى أثر ذلك اجتمع مجلس إدارة الجامعة الأهلية وجمعيتها العمومية ووافقا راضيين على انتقالها إلى الحكومة فذهبت والمغفور له رشدي باشا إلى وزراة المعارف وكتبنا الاتفاق فانتقلت الجامعة الأهلية إلى الحكومة ، وسرنا بعد ذلك في تنفيذ المشروع قدماً وأذكر أنني وزكي أبو السعود باشا زرنا سراي موصيري في الجيزة لتكون مقراً للجامعة ثم ألّف وزير المعارف لجنة لهذا الغرض برئاسة المغفور له إسماعيل حسنين باشا وكيل المعارف يومئذ واختارني عضواً فيها وكنت إذ ذاك مديراً لدار الكتب »

وترك الملك فؤاد الأمر للحكومة تتصرف فيه كما تشاء فلم يتقدم تقدماً يذكر حتى خشي جلالته أن لا تنشأ الجامعة الجديدة . قال لطفي باشا : « وفي شهر مارس سنة ١٩٢٥ حث الملك فؤاد الحكومة حثاً مستمراً قوياً على تنفيذ مشروعها فاستصدرت مرسوماً بإنشاء الجامعة ، وفي اليوم نفسه صدر مرسوم آخر بتعييني مديراً للجامعة الجديدة ، فلما تشرفت بمقابلة جلالته لأشكره على ثقته بي وعطفه عليّ أعرب عن أسفه الشديد على الوقت الذي ضاع سدى وقال إن الجهود يجب أن تبذل بسخاء لتنفيذ المشروع الجديد بعد ما طال عليه الوقت »

واستأنف لطفي باشا حديثه فقال : « وساعدني الملك فؤاد بعد ذلك في مرحلة التنفيذ مساعدة عظيمة حتى أعددنا المكان — وكان سراي الزعفران — وأقمنا فيه المدرجات والمعامل لكي تبتدىء الدراسة في شهر اكتوبر وتمّ ذلك فعلا »

وهنا قال لطفي باشا — وهو يشدد على مخارج ألفاظه لئلا يفوتني شيء منها — « وإني أشهد بأن كل ما تسنى لنا عمله يومئذ كان بهمة الملك فؤاد وأذكر أنني

ما قابلته مرة إلا سمعته يشكو من أن العمل لا يتقدم بالسرعة التي يريدها »

* * *

و بعدما فرغ لطفي باشا من حديثه المتقدم قال إنه سيروي لي تفصيل حادث يدل على الاهتمام الذي استمر الملك فؤاد يبديه بالجامعة . ذلك إنه لما عهد جلالته إلى المغفور له محمد محمود باشا في تأليف الوزارة عرض دولته على لطفي باشا أن يشترك في الوزارة وقال له إنه يرشحه وزيراً للخارجية فعارضه لطفي باشا في ترشيحه للخارجية وقال إنه يؤثر عليها وزارة المعارف ليحتفظ بإدارة الجامعة فيواصل إشرافه عليها فلم يقتنع محمد باشا وقال إنه سيترك الأمر لجلالة الملك عندما يرفع إليه أسماء مرشحيه فلما تشرف دولته بمقابلة جلالته لهذا الغرض عرض على مسامعه ما دار بينه و بين لطفي باشا فقال جلالته على الفور : « وأنا من رأي لطفي بك فإن الجامعة أهم عندي من كل شئ آخر » فقلد سعادته وزارة المعارف مع احتفاظه بمنصب مدير الجامعة

* * *

وختم لطفي باشا حديثه بقوله : « لولا الملك فؤاد لا ستبعدت كثيراً أن يكون عندنا جامعة »

* * *

وفي يوم الثلثاء ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ تفضل الملك فؤاد بوضع حجر الأساس في بناء الجامعة الجديد في الجيزة وخطب في ذلك الاحتفال بين يدي جلالته سعادة علي الشمسي باشا بوصفه وزيراً للمعارف وسعادة لطفي السيد باشا بوصفه مديراً للجامعة ولما انتهيا من إلقاء خطبتيهما حمل بعض موظفي الجامعة ثلاثة كراسات مجلدة بالجلد القرمزي النفيس إلى جلالة الملك ملتمسين منه توقيعها بإمضائه الكريم لكي توضع في جوف الحجر الأساسي تخليداً لهذه الذكرى المباركة

فوقعها جلالته ، وقد كتب على كل كراسة منها العبارة الآتية : « بعون الله تعالى قد وضع حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم الحجر الأساسي في بناء الجامعة المصرية يوم الثلثاء ١٥ شعبان سنة ١٣٤٦ هـ — ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ م »

و بعد ما طرق جلالته حجر الأساس بمطرقة من الذهب التفت إلى الذين كانوا واقفين حوله وقال وأمارات الانشراح مرتسمة على محياه : « إن شاء الله يعود هذا المعهد على البلاد بالرقي »

✲ ✲ ✲

ومما قصه عليَّ الشمسي باشا في سياق حديثٍ عن الملك فؤاد وحبه العظيم للجامعة وتقديره الكبير للتعليم العالي أنه لما تشرف بمقابلته ذات مرة بعد عودته من أوربا — وكان سعادته يومئذ وزيراً للمعارف — سأله جلالته عما عنده من جديد فى شأن التعليم فقال الشمسي باشا إنه لما كان يقضي إجازته في سويسرا عرض على البروفسور أندريا عميد كلية الهندسة الشهيرة في « زوريخ » أن يجئ إلى مصر ليتولى عمادة كلية الهندسة فترة من الزمن فقبل العرض ووعد بالقدوم

قال الشمسي باشا : « ولم أكد أقول لجلالته إن البروفسور أندريا قبل العرض ووعد بالقدوم إلى مصر حتى أبرقت أسارير وجهه فرحاً وكاد ينهض واقفاً وهو يقول لي : لو لم تكن أنت الذي ينقل إليَّ هذا الخبر لما صدقته . . . . . إنه أحسن خبر يمكنك أن تزفه إليَّ »

و بهذه المناسبة قال الشمسي باشا ما يؤيد ما سمعناه من أحمد لطفي السيد باشا ومن غيره وهو ان الملك فؤاداً كان يرى أن تستعين مصر بعلماء الغرب وخبرائه إلى أن ينشأ المصري الذي يبلغ مرتبة أولئك العلماء وحينئذ لا يكون على مصر إلا أن تشكرهم على ما أسدوه إليها وتحل المصري محلهم

✲ ✲ ✲

وفي يوم السبت ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٢ زار الملك فؤاد كلية الآداب وكلية الحقوق في بنائيهما الجديدين في الجيزة ثم ترأس الاحتفال بتوزيع الدرجات الفخرية والعلمية على طائفة من رجال مصر وكان معالي حلمي عيسى باشا وزير المعارف إذ ذاك خطيب ذلك الاحتفال ثم نهض الأستاذ علي الجارم بك وألقى قصيدة نظمها أمير الشعراء أحمد شوقي بك خصوصاً لهذه المناسبة فقوطعت غير مرة بالتصفيق الشديد والهتاف العالي لملك مصر والسودان ولحامي الجامعة ونصير العلم ولا سيما البيت القائل

أرأيت ركن العلم كيف يقام أرأيت الاستقلال كيف يرام

* * *

وقد أتيح لسعادة الدكتور علي ابراهيم باشا المدير الحالي للجامعة أن يتشرف بمقابلة جلالة الملك فؤاد غير مرة لشؤون تتعلق بالجامعة في المدة التي قضاها مديراً لها بالنيابة مع اضطلاعه بعمادة كلية الطب . وحدثني عن ذلك أخيراً فقال إن الملك فؤاداً كان دائماً ينظر إلى المستقبل ومما يذكره في هذا الصدد أنه ما كاد يعرض عليه رسوم قاعة الحفلات والاجتماعات الكبرى في الجامعة حتى سأل جلالته عن عدد الطلبة الذي وضعت هذه الرسوم على أساسه فقال سعادته إنها وضعت على أساس أن عدد طلبة الجامعة لا يجاوز ألفين فقال الملك على الفور : « و بعد خمسين سنة ؟ . . » ثم أردف جلالته ذلك بقوله : « إن نصيحتي لك هي أن تأخذ هذه الرسوم وتعدلها على أساس أن تسع القاعة خمسة آلاف طالب »

قال لي الدكتور علي باشا : « واليوم كلما ذكرت أن في الجامعة ثمانية آلاف طالب لا يسعني إلا أن أذكر ملاحظة الملك فؤاد في تلك المقابلة والنصيحة التي أسداها إليّ »

وكان الدكتور علي ابراهيم باشا جالساً في مكتبه في إدارة الجامعة وهو يحدثني عن تلك الذكريات وفجأة رأيته يرسل نظرة من خلال النافذة إلى بنايات الجامعة ثم التفت إليّ وقال : « إن الملك فؤاداً هو الذي بنى الجامعة حجراً حجراً . . . هذا هو تاريخ الجامعة المصرية »

وسكت سعادته لحظة كمن هو في حيرة فالذكريات تتزاحم في ذهنه فأيها يختار ثم قال : « إنك تعلم أن في الجامعة قاعة لاستقبال الملوك وعظماء الزوار وهي القاعة التي نسميها القاعة الملكية فما قولك في أننا لما أردنا أن نؤثثها أرسلنا إلى قصر عابدين أنموذجا من الكراسي التي اختيرت لها ليطلع عليه الملك فؤاد و يبدي رأيه فيه . . . حتى السجادة أرسلناها إلى عابدين ليشاهدها جلالته . . . وقد اخترت هذا المثل دون سواه لأنه يصور ألطف تصوير ماسأقوله لك وهو أن كل ما عمل في الجامعة عمل إما بتوجيه من الملك فؤاد أو بإرشاد منه »

* * *

ومن يرجع إلى الخطب التي ألقيت بين يدي الملك فؤاد في الجامعة يجد فيها تنويهاً بالخدمات الجليلة التي أسداها إليها لما زار عواصم أوربا من أجلها في السنوات الأولى من إنشائها

وسمعت من الدكتور علي توفيق شوشه بك وكيل وزارة الصحة شيئاً خليقاً بأن يضاف إلى كل ما قيل في هذا الصدد

فقد كان الدكتور شوشه بك عضو بعثة من بعثات الجامعة القديمة إلى أوربا وكان لايزال في برلين لما زارها الأمير احمد فؤاد في سنة ١٩١٠ ليشهد احتفال جامعة برلين بعيدها المئوي بالنيابة عن الجامعة المصرية

وكانت إدارة الجامعة المصرية قد اختارت البروفسور زخاو مدير مدرسة اللغات الشرقية ليكون ولي أمر الطلبة المصريين في برلين

وكان البروفسور زخاو صديقاً حميماً للامبراطور غليوم الثاني ومن أقرب المقربين إليه فحدثه عن الأمير أحمد فؤاد فأبلغه الامبراطور أنه يسره أن يجتمع به

قال لي الدكتور شوشه بك : « وفي اليوم الثاني لليوم الذي زار فيه الملك فؤاد الأمبراطور غليوم الثاني دخل علينا الدكتور زخاو وقال لنا : إن الأمبراطور أكد له أن الأمير أحمد فؤاد من الأفراد القليلين الذين بهروه بكثرة معارفهم وأنه دهش لوفرة معلوماته وسعة اطلاعه . ثم أخبرنا البروفسور زخاو أن الأمبراطور غليوم الثاني قرر تحيةً منه للأمير أحمد فؤاد أن يمتحن الطلبة المصريون مع الطلبة الألمان ، فكانت هذه أول مرة يمتحن فيها طلبة أجانب مع الطلبة الألمان »

* * *

ولما توفي الملك فؤاد في سنة ١٩٣٦ كان عدد طلبة الجامعة ٦٤٨٧ طالباً وكان عددهم ٥٥٠ طالباً في سنة ١٩٠٨

الجامعـــة الأزهرية

إن لم يكن الأزهر الشريف أشهر معاهد العالم القديمة فهو من أشهرها بلامراء فلا يحتاج إلى تعريف وله بين الشعوب الإسلامية والأمم الناطقة بالضاد مقام رفيع لايدانيه سواه

ومع أن لهذا المعهد العريق في التاريخ والفضل أنصاراً كثيرين فله كذلك ناقدون يرون أن زمانه مضى وانقضى ولم تعد هناك حاجة إليه بما طرأ على المعارف والعلوم من تبدل وما وقع فى الدنيا من تغيير — هؤلاء هم الذين يخلعون على أنفسهم لقب المجددين فيعرضون عن كل قديم لقدمه ولا يحلو لهم سوى الجديد حتى لقد يضربون بقواعد اللغة عرض الحائط رغبة منهم في إظهار نزعتهم هذه

ولكن الواقع ينقض هذه النظرية وبقاء الأزهر في مقامه المعروف وإقبال الطلاب عليه من جميع أقطار الدنيا لتحصيل ما فيه من علوم ومعـارف دليل ساطع وبرهان قاطع على أن العالم الشرقي لا يستغني عن هذا المعهد العظيم وأن وظيفته المعروفة لا تزال تؤدى بما ينفع الناس في دينهم ودنياهم

على أن جلالة الملك فؤاد الأول أدرك أن هذا النفع الذى يجنى من الأزهر يتضاعف ويسد حاجات شتى على وجه أعم إذا روعيت في أنظمة التعليم فيه مقتضيات الزمان وما جدَّ في العصور الحديثة من شؤون فبدأ جلالته أولا بإعادة تنظيم مجلس الأزهر الأعلى ثم انقضت عدة أعوام في درس موضوع الأزهر

و إصلاحه فوضعت له أنظمة وقوانين متعددة تفاوتت في مداها إلى أن استقر القرار على القانون الذي صدر في سنة ١٩٣٠ وعدل فيما بعد على ضوء ما دل عليه التنفيذ والاختبار

وكنت أزور أخيراً فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر فجر الحديث إلى ذكر الملك فؤاد والأزهر الشريف فقال فضيلته :

« لاشك في أن الأزهر كان مغموراً بعطف الملك فؤاد ومساعداته من يوم توليته العرش إلى يوم وفاته فهو الذي أوعز في سنة ١٩٢٥ بتأليف لجنة إصلاح الأزهر وهو بلا ريب صاحب الفضل في إصدار قانون التخصص في سنة ١٩٣٣ و إذا كانت ميزانية الأزهر قد زادت في عهده تلك الزيادة العظيمة فلأنه هو الذي كان يوصي دائماً بإحلال طلبات الأزهر وحاجاته محلها من العناية والاعتبار فبلغت ميزانيتنا بمساعدته ومؤازرته مابلغته

« ومن حق الملك فؤاد على الأزهر أن أذكر له ما كان لمعونته من نصيب كبير في إخراج ما جدّ من مباني الأزهر والجامعة الأزهرية إلى حيز الوجود وهو الذي أمر ببناء هذه الدار (دار إدارة المعاهد الدينية) وكذلك البنايات الثلاث التي يشغلها معهد القاهرة الآن وهذا علاوة على المعاهد الجديدة التي أنشئت في جهات شتى فالأزهر والحالة هذه مدين له بأشياء كثيرة أدبية ومادية وتعليمية في النهضة التي نهضها »

وهنا قال الشيخ المراغي : « أذكر أنني كنت جالساً مرة في حضرة الملك فؤاد فقال إنه رأى بين رجال الدين فى الفاتيكان رجالاً يصلحون لأن يكونوا وزراء وسفراء وحكاماً وأنه يتمنى أن يجيء اليوم الذي يرى فيه علماء الأزهر قد هيئوا لمثل ذلك، وفي هذا ما يصف ما كان جلالته يريده للأزهر والأزهريين من تقدم و إصلاح »

واستطرد فضيلة الأستاذ الأكبر من ذلك إلى القول « ولو أردت أن أصف الملك فؤاداً بعبارة موجزة لقلت إنه كان يتمنى أن يرى كل شيء حسناً فقد كان يرى أن ملكه يكون عظيماً عندما يكون كل شيء في مصر عظيماً »

***

وما كاد قانون الأزهر الذي صدر في سنة ١٩٣٠ يذاع حتى اجتمع جميع طلبة الأزهر بأقسامه الثلاثة في مسجد عابدين وفي مقدمتهم شيوخهم ومدرسوهم ومراقبوهم ولما تكامل عددهم خرجوا من المسجد إلى قصر عابدين هاتفين لجلالة الملك وولي عهده ودخلوا القصر من باب التشريفات فملأوا ردهة التشريفات والردهات الأخرى المتصلة بها وطال وقوفهم وهم يهتفون للجالس على العرش ولإصلاح الأزهر ثم انتدبوا عنهم ثلاثين من كل قسم من أقسام الأزهر الثلاثة فدونوا أسماءهم في دفتر التشريفات و بعد ما فرغوا من ذلك ناب عنهم فضيلة الشيخ محمود أبو العيون المفتش في الأزهر والمعاهد الدينية إذ ذاك فقابل معالي كبير الأمناء وقدم إليه بالنيابة عن الأزهر ، شيوخاً وطلبة ، كلمتهم إلى السدة الملكية فوعده معاليه برفعها إلى جلالة الملك لوجوده فى قصر القبة

ثم عاد الشيخ أبو العيون إلى الشيوخ والطلبة فأبلغهم ذلك فعلا هتافهم بحياة الملك وظل الهتاف على هذا المنوال زهاء ساعة ثم انصرفوا من القصر إلى دروسهم

وهذا هو نص الكلمة التي قدمها يومئذ الشيخ أبو العيون إلى كبير الأمناء بالنيابة عنهم :

مولاى صاحب الجلالة

« اليوم يتشرف هذا الجمع الحاشد من علماء الجامع الأزهر وطلابه بالسعي «والوقوف في ساحة قصر المليك المعظم سلالة المجد المؤثل وحامي حمى الدين الحنيف

جلالة الملك فؤاد فى إحدى زياراته لجامعة فؤاد الأول

جلالة الملك فؤاد يتفقد فصول إحدى كليات الجامعة الأزهرية

« جاء هذا الجمع هاتفاً باسم جلالتكم داعياً لكم بطول العمر و بخير الحياة يحفزه الولاء والإخلاص لملك كريم وأب رحيم يرعاهم برعايته وعنايته و يغمرهم بحبه وعطفه و يهيئ لهم من الحياة السعيدة مكاناً سوياً

مولاي

« ربع قرن يا مولاي والأزهريون يكافحون بعزيمة ماضية هاتفين باسم الإصلاح والحياة القيمة واليوم يا مولاي طلع علينا المرسوم الملكي بقانون الجامع الأزهر الجديد فأحيا منا نفوساً كاد اليأس يذهب بآمالها من الإصلاح المنشود وألهج ألسنتنا بآيات الشكر والدعاء لجلالتكم لتحقيق هذه الأمنية الغالية

مولاي

« لقد أرضيت الله والناس بهذا العمل المشكور وسيكتب المستقبل لجلالتكم صحف المجد وأنبل الذكريات لأنكم رفعتم شأن أكبر جامعة في تاريخ الإسلام

« و إن اليوم الذي رسمت فيه بيراعك الكريم آية النهضة العلمية في الجامعة الأزهرية لهو يوم تسمو طلعته إلى مرتبة الأعياد الكبرى

« فنسأل العلي الأعلى أن يبقيك عمراً طويلا وأن يديمك عضداً للإسلام وحارساً لرجاله وأبنائه وأن يحفظ لنا سمو الأمير فاروق ولي عهدك المحبوب وأن يعيذه من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد »

* * *

ولم تقف عناية الملك فؤاد بالدين عند حدود مصر بل جاوزتها إلى الأقطار الشقيقة ومن ذلك أنه لما تشرف سماحة رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين بمقابلة جلالته في يناير سنة ١٩٢٩ رفع إليه مجموعة نفيسة من الصور لمناظر المسجد الأقصى بأقسامه المختلفة وقد صورت هذه الصور باليد تصويراً دقيقاً ولونت بالألوان المطابقة للأصل تلويناً بديعاً ووضعت المجموعة في صندوق نفيس من خشب الزيتون المطعم بالصدف وهي الصناعة التي اشتهر بها صناع فلسطين فتفضل جلالته بقبولها

ثم تفضل جلالة الملك فسأل رئيس المجلس الأعلى عن أعمال الترميم التي تعمل في مباني المسجد الأقصى فوصفها له سماحته مستعيناً بالصور الفوتوغرافية ومبيناً الفرق بين بعض أجزائها قبل الترميم وبعده فأبدى جلالته اهتماماً عظيماً بالموضوع وودع سماحته وهو يؤكد له أنه سيضع هذه المسألة موضع تفكيره واهتمامه

وبعد أيام ذهب ناظر الخاصة الملكية إلى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في الفندق الذي كان نازلا فيه وسلمه كتاباً رسمياً أبلغه به أن جلالة الملك تبرع بخمسة آلاف جنيه لتنفق على أعمال الترميم في المسجد الأقصى

وقابلت يومئذ جميع البلدان الإسلامية هذه المبرة الملكية بالحمد والثناء

وبهذه المناسبة نذكر أنه لما زار الزعيم المسلم الهندي الكبير مولانا شوكت علي مصر وتشرف بمقابلة الملك فؤاد أوفد إليه جلالته في الغد أحد رجال القصر بثلاث صور فوتوغرافية له ليختار منها إحداها فيمضيها له جلالته بعد ذلك على سبيل التذكار

وتصادف وجودنا عند مولانا شوكت علي عند وصول مندوب الملك فقابل هذه اللفتة الكريمة بالشكر والدعاء ثم أطلع على الصور الثلاث وكانت الأولى

تمثل الملك ببدلة الردنجوت والثانية تمثله بالردنجوت كذلك والثالثة تمثله بالبدلة العسكرية فما كاد يرى هذه الصورة الأخيرة حتى صاح قائلا « أريد هذه . . . جندي الإسلام »

و بعد قليل زاره مندوب الملك مرة أخرى وسلمه الصورة التي اختارها ممضاة من جلالته فكرر الشكر والدعاء